فيها وتأثروا بها. حقّق البعض منهم مساحة واسعة من الاندماج، في حين آثر البعض الآخر العزلة غير المباشرة عن المناخ الاجتماعي العام.

يبلغ تعداد الغجر نحو 30 ـ 40 مليون نسمة، تقطن الغالبية منهم حول المدن الكبيرة في ضواحي فقيرة ومهملة، كذلك في الأراضي النائية الخربة، وفي المساحات التي تفصل بين حدود الدول.

بلورت مجمل القوانين القمعية التي اتخذت في كل حين ضدهم، الأثر البالغ في حياتهم، إلى الدرجة التي جعلتهم في صراع مستمر من أجل البقاء، من خلال بحث دائب عن منافذ حياتية، حيث أُجبر مئات الآلاف منهم على العمل كعبيد لدى الأغنياء والأمراء والملوك، في فترات طويلة من القرون الوسطى، وفي أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية، خاصة في رومانيا، ولم يتمّ تحريرهم إلا في عام 1856.

غير أن المفارقة هي أن أوضاع الغجر لم تتحسن كثيراً، فما زالوا يعانون من التهميش الاجتماعي والتمييز والفقر، وترسخت النظرة نظرة الدونية تجاههم حتى في أوروبا الحديثة، وظلوا يتعرضون لشتى أنواع الاضطهاد والتمييز وصلت إلى أعلى درجاتها إبان الحرب العالمية الثانية من قِبل النازية التي قتلت الآلاف منهم في أفران الغاز ضمن سياسة منظمة للتخلص منهم باعتبارهم من «الشعوب المنحطة والعناصر الفاسدة».

معاناة الغجر كانت كبيرة، إلى درجة أنها حُفرت عميقاً في تاريخ البشرية، ولكن من دون أن يسلط الضوء عليها ليعرف الجميع المعنى الحقيقي لتلك المعاناة، والتي ما زالت متواصلة بإلغائها أو

Twitter: @algareah

عدد غير قليل من الكتب، الجانب المخفي من المنحى الإنساني الذي يغلّف حياتهم، ولم تقترب كثيراً من عذاباتهم المتواصلة.

وبتواضع يمكن القول إنه محاولة للخروج عن السائد مما دُوِّن عنهم على مدى أزمنة امتدت بين رحلتهم الأولى، مروراً بكل الأسفار.. ولغاية حاضرهم المأساوي.

أهديت الكتاب إلى شقيقي كمال وابن شقيقتي حيدر اللذين غيَّبهما العنف الطائفي المقيت في مناخ مشحون بالكراهية. غابا مبكراً في غياهب المجهول، وما زال وهم عودتهما يغلّف انتظارنا المتواصل والقلق في آن.

جزيل الشكر للجهود التي قدّمها لي الأصدقاء الشعراء هاشم شفيق، سيد أحمد بلال، مؤيد الشيباني، والفنان أحمد مختار والصحافية تحرير السماوي والباحث رشيد الخيون والاعلامي عبد الستار السكيني.. وادوّن عرفاني بالجميل إلى ولدي آمور لبحثه الدؤوب في المصادر الإنكليزية، وإلى شقيقاتي اللواتي بذلن الكثير في تذليل صعاب الحصول على مصادر عربية عدة، وإلى الأصدقاء شذى مجيد، سهيلة السجاري، عباس الطائي، ورياض راضي، والأديب الراحل عبد الغني الخليلي الذي زوّدني قبيل رحيله بمواد بالغة الأهمية باللغتين الإنكليزية والفرنسية.

لهم جميعاً امتناني العميق ليغدو هذا الحلم حقيقة ذات ملمس.

Twitter: @alqareah

استند العديد من الابحاث في دراسة أصل الغجر إلى نبوءة حزقيال القائلة «سأشتت المصريين بين الأمم».

وثمة أسطورة متداولة في روسيا تؤكد أن أصل الغجر من مصر، اذ تقول ان جيوش فرعون غرقت عند اجتيازها البحر الاحمر، ولم ينجُ إلا فتى وفتاة ليتزوجا فيما بعد ليكونا بمثابة آدم وحواء الغجر. بالمقابل يشدد بعض الباحثين على أن الغجر جاءوا من بلاد النوبة، خاصة روبرت صاموئيل الذي اتخذ من نبوءة حزقيال اساساً لدراساته وأبحاثه. في حين أشار عالم الغجريات فيلانت في كتابه الشهير: «التاريخ الحقيقي لأصل البوهيميين» الذي صدر عام 1857 إلى أن الغجر هم بقايا الفينيقيين. اما الباحث بودر يمون فقد نسب الغجر للبابليين وأنهم اضطروا للهجرة إثر خراب عاصمتهم. الشاعر الفرنسي فولتير أدلى هو أيضا بدلوه، إذ أشار إلى أن الغجر هم سلالة من البوهيميين جاءت من كهنة ايزيس بعد اختلاطهم بالعذارى المنذورات للآلهة.

وساعد الغجر، إلى حد ما، على نشر الاعتقاد بأنهم نزحوا من مصر من منطلق العجز والضعف، إلى جانب ردود الفعل التي أحدثتها هجرتهم إلى أوروبا، فاختلقوا الحجج والأعذار الواهية، فقد زعموا أنهم هربوا من مصر نتيجة الجور والظلم الذي لحق بهم. ووجدت تلك الأعذار والأسباب قبولاً لدى بعض المتعصبين، خاصة مع فشل الحروب الصليبية، ليغدو على اثرها الغجر مصريين. هذه اللعنة ظلت تطاردهم في أغلب تفاصيل حياتهم، مقترنة بالتعذيب والتهميش والإهانة لغاية الآن.

الغجر هم ذاتهم ولأسباب غير معروفة حاولوا عبر أساطيرهم

Twitter: @algareah

فارس. وحين وصلوا منحهم الملك «بهرام غور» البذور والماشية وخصص لهم الأرض ليحصلوا بواسطتها على رزقهم للعمل على ترفيه شعبه من دون مقابل. ومع نهاية العام الأول ترك الغجر الزراعة بعدما استهلكوا البذور، ليغدوا بالتالي عبئاً على البلد الفقير. غضب «بهرام غور» منهم وأمر بمصادرة ممتلكاتهم وآلاتهم الموسيقية، وأمرهم بالتجوال والغناء في أرجاء البلاد لكسب لقمة عيشهم، ثم اضطروا إلى مغادرة بلاد فارس بحثاً عن رزق ومأوى جديدين... ومن هنا بدأت مأساة شعب لم تنته لغاية الآن. ووصف الشاعر الفردوسي في «الشاهنامة» الغجر بأنهم عاشروا الكلاب الوحشية والذئاب وهاموا على وجوههم وهاجموا القوافل وسلبوا المسافرين.

وإزاء تغلغل القبائل الطورانية ـ التركية في مناطق لوريستان، واصل الغجر رحلتهم نحو واجهة الغرب ليصلوا في القرن التاسع الميلادي إلى حدود الامبراطورية البيزنطية، ثم قطعوا آلاف الأميال ليصلوا إلى شواطئ بحر ايجة الفاصل بين تركيا واليونان.

وبعد أن كانوا يسيرون على هيئة تجمعات بشرية متراصة، تفرقوا عند بوابة أوروبا إلى عدة موجات، اتجه بعضها إلى جنوب اليونان (شبه جزيرة بولوبونيز) التي أطلق عليها لفترة زمنية طويلة تسمية «مصر الصغرى» اعتقاداً بأن الغجر الذين يقطنونها أتوا من مصر، ثم اتجهوا جنوباً نحو أواسط آسيا وسورية والعراق، وواصل قسم منهم رحلته سائراً بمحاذاة شواطئ البحر المتوسط متجهاً نحو مصر وفلسطين.

ومن المرجح أن عدداً منهم وصل إلى مضيق جبل طارق ثم العبور إلى اسبانيا.. وهم جماعة «خيتانو». أما الجماعة الجنوبية

Twitter: @alqareah

وبالمثل اتهم الغجر في الدول الاسكندنافية بأنهم مجموعة تقتات على الاحتيال والكذب والشعوذة.

أما في دول البلقان فقد عوملوا كعبيد طوال مئتي عام، وظلوا كذلك في رومانيا حتى عام 1856. واشترطت امبراطورة النمسا ماريا تيريزا منح الغجر حق الحياة باللجوء إلى الزراعة وتعلم القراءة والكتابة والتخلي عن لغتهم والكف عن التسول والاستجداء عن طريق الغناء والرقص، كما سمحت لهم بممارسة بعض الحرف والمهن اليدوية التي تتلاءم مع طبيعة حياتهم. لكن الغجر ظلوا على هامش الحياة ولم يلقوا قبولاً عند الشعوب التي نزحوا إليها، ووصدت دونهم الأبواب، كما بدأت حملات اضطهادهم ونظمت المذابح ضدهم، بعدما اتهموا بالسحر والشعوذة واختطاف الأطفال، لذا حلل العديد من نبلاء أوروبا قتلهم وحرقهم أحياء. ففي فرنسا على سبيل المثال ظل الغجر دون حقوق في عهود لويس الثاني عشر ولويس الرابع عشر ولويسَ الخامس عشر، فكانت الأشغال الشاقة تفرض على رجالهم دون مقابل، بينما كانت تساق نساؤهم لمتعة الجنود، وينتزع أطفالهم منهم، ولم يتحسن وضعهم إلا بعد الثورة الفرنسية.

ولعل القوى الثلاث الرئيسة في أوروبا خلال العصور الوسطى: الكنيسة، الدولة، والنقابات الحرفية، ساهمت في ترسيخ العداء والكراهية للغجر، خاصة إثر مزاولتهم الكثير من المهن ومنافستهم لأصحابها، ولم يمارس الغجر أية حرفة سوى الحدادة، إلى جانب بعض الحرف الهامشية الصغيرة. وقد دفعت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية.. وحتى القانونية، الغجر إلى الاحتيال والغش، في محاولة لمواصلة الحياة.

Twitter: @alqareah

* جوراري: تعيش هذه المجموعة منفصلة عن بقية غجر كالدراس.

* تركو أمريكان (الأتراك الأمريكان): اتصفوا بهذه الكنية كونهم هاجروا إلى الولايات المتحدة من تركيا قبل عودتهم إلى أوروبا.

ـ خيتانو: ينحصر وجود هذه المجموعة في الغالب الأعم في إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا، ويختلفون عن غجر كالدراس بالملامح والعادات واللهجة، وينقسمون إلى ثلاث شرائح:

* الإسبان

* الكتالونيون

* الأندلسيون

ـ مانوش: وهم البوهيميون التقليديون، ويعني اسمهم بالسنسكريتية (الرجل الحقيقي) أو (الكائن البشري) وتطلق عليهم تسمية (سنتي) لاحتمال أن أصلهم الهندي يعود إلى السند. ويدل الاسم أيضاً على الشخص البالغ كإشارة للاحترام، ويتوزعون على مجموعات عدة:

* فالسيكان: وهم الغجر الذين يعملون في المسارح المتنقلة.

* غايغيكان: ويسمون أيضاً سنتي الألمان، وقد اختلطوا مع البدو الأوروبيين الذين لا ينتسبون إلى الغجر، رغم أنهم يحيون الطقوس والتقاليد ذاتها.

* بيامونتسي: وهم سنتي إيطاليا، وتنقسم هذه المجموعة إلى

Twitter: @alqareah

انتقلت تلك القوانين شفاهاً، الأمر الذي أدى إلى تغيير جذري في مضامينها ومعانيها. ويتمسك الغجر لغاية الآن بما تبقى لديهم من قوانين وشعائر وطقوس وقيم وأعراف بصورة صارمة، فهم يحيطونها بإطار من السرية لا يحق، وبأي شكل من الاشكال، أن يكشفوها لغير الغجر.

ولعل الأسرة هي الآصرة الاجتماعية الواضحة في قيم الغجر. وثمة ثلاثة أنواع من الرابطة الأسرية: الأسرة الأبويّة، الأسرة الأخوية، والأسرة ذات العلاقات الجديدة. وتتركز كل الروابط الأسرية على المرأة، فهي محور الرابطة الأسرية بكل تنوعها واختلافها، وتتمتع بمكانة محترمة، إذ يقطن الزوج عادة مع أهل زوجته، إضافة إلى أن الأطفال يحملون كنية الأم، ويتكلمون بلهجة والدتهم وليس والدهم، إذا كانا من جماعتين غجريتين مختلفتين، وهي سمة النظام الأمومي التي ما زالت قائمة لدى الكثير من القوميات الهندية لغاية الآن.

ولا يقتصر مفهوم العائلة على الرابطة الأسرية فحسب، بل يتسع ليشمل الأقارب.. ويتخذ مفهوم الأقارب مدى غير متوقع البتة، فهو يشمل المنضوين تحت سلّم العلاقات الأسرية مهما كانت بعيدة. ومن هذا المنطلق تعتبر العشيرة الوحدة الاجتماعية الأساسية بعد الأسرة مباشرة. والغجري محكوم بمجموعة من التقاليد والقيم والطقوس تحددها العشيرة، كذلك تحدد درجة قرابة الأفراد ضمن العشيرة الواحدة، نوعية التفاعل الضمني داخل هذا الاطار. وتجتمع العشيرة عادة في المناسبات الخاصة كحضور صفقة شراء العروس أو الزواج أو الأعياد.. وفي حالات الوفاة أو فضّ المنازعات.

Twitter: @alqareah

تالياً بدورها بنشر المسيحية بين أبناء قومها.

عبادة القديسة سارة السوداء من المعتقدات المهمة للغاية لدى الغجر، كما أن الحجيج إليها يعتبر طقساً دينياً في غاية الضرورة، ولا يؤدي فيه الغجر أي شعائر سوى السير في ردهات المعبد حفاة وحاسري الرأس. ويسمح للحجاج بلمس تمثال سارة الكالية (السوداء) أو تقبيل أذيال ثياب التمثال. وتشمل شعائر الحج أيضاً السير نحو البحر والغطس في مياهه ضمن احتفال صاخب. ولا يزال الغجر يقدسون سارة الكالية، إذ يتصدر تمثالها بيوت الغجر وعرباتهم وأماكن عملهم.

وما يتعلق بالآخرة فلدى الغجر عدد من المفاهيم الخاصة لما بعد الحياة، إذ يعتقدون بأن الأموات يسلكون ذات طريق الشمس خلال غروبها، للهبوط إلى الجحيم معتلين ديكين.. وتستغرق الرحلة نحو شهرين للوصول إلى نقطة النور المتوهجة في آخر النفق المعتم والمتمثلة بقلعة الامبراطور الأسود.

إلى جانب المعتقدات الدينية القديمة لدى الغجر والديانات التي اعتنقوها، ثمة محرمات عديدة تؤطر تفاصيل حياتهم، إذ يسود بينهم اعتقاد بأن المرأة تمثل مصدراً للنجاسة، فليس من المستحسن تناول أي طعام أو شراب تخطته امراة، كذلك ليس على المرأة ان تجتاز رجلاً وهو جالس، حتى لو كان زوجها. كما تعتبر الفترة الزمنية التي تتلو الولادة خطرة، إذ يحرص الغجر على التخلص من الاشياء التي استخدمتها المرأة خلال فترة الولادة، كالأطباق والأكواب والملاعق لتحرق جميعها بعد الولادة. بالمقابل لا تلمس المرأة بعد فترة الولادة الطعام الذي يعد للعائلة الكبيرة، ويفرض بعض جماعات

Twitter: @algareah

الصغرى قبل الكبرى. وينتشر لدى غجر أوروبا ظاهرة اختبار شجاعة العريس المتقدم. ومن الزيجات المعروفة عند الغجر، زواج الدم، حيث يُجرح معصما العروسين ويلصقان أحدهما بالآخر لتختلط الدماء. ووجدت لدى بعض جماعات الغجر ظاهرة تعدد الزوجات، كذلك الجمع بين شقيقتين في زيجة واحدة.

وتقع مسؤولية الأسرة لدى أغلب جماعات الغجر على الزوجة، فهي تعمل على إعالة الأسرة مادياً، ويعتمد دخل الأسرة على ما تجنيه الزوجة من الأعمال التي تمارسها كالرقص وقراءة الطالع والاستجداء أو السرقة.

ولا تحبذ جماعات الغجر زواج الغجري أو الغجرية من غير الغجر، وتعتبره من الأفعال المشينة، إذ تطرد المرأة الغجرية من الجماعة، في حين تكون العقوبة مخففة بالنسبة للغجري الذي اقترن بامرأة غير غجرية، التي تقابل بالكراهية والازدراء والتهميش من قبل أفراد الجماعة على مدى سنوات طويلة.

الطلاق

ظاهرة الطلاق هي الأخرى موجودة عند الغجر، ولكن بنسب ضئيلة للغاية، حتى تكاد لا تذكر، إذ تراعى العلاقة الزوجية بصورة صارمة وليس ما يدحض الثقة المتبادلة بين الزوجين سوى الخيانة الزوجية.. والتي تكون عقوبتها حلق شعر المرأة الخائنة والازدراء من قبل أفراد الجماعة، ولعل أقل عقوبة تنالها الزوجة الخائنة لمجرد إيماءة جنسية، هي الضرب والهجر لمدد متفاوتة تبعاً للفعل.

العقوبة الأشد تتمثل بقطع الأذن أو جدع الأنف.. غير أن تلك العقوبة انحسرت تماماً في الحاضر القائم.

Twitter: @alqareah

الموت والدفن

يشترك الغجر بتقاليد دفن موتاهم، رغم بعض الاختلافات البسيطة في التفاصيل، وهي تعكس ثقافة وقيم الغجر أولاً.. وتأثرهم بثقافات الشعوب التي عاشوا معها أو لامسوا حضارتها، إذ يتم تناول الشراب بعد الدفن مباشرة، أو تناول وجبة العشاء الاخيرة بجوار القبر بعد طقوس الدفن مباشرة، ويترك جزء من العشاء لروح المتوفى.. وهي طقوس مشابهة لتلك التي يمارسها الأرثوذوكس.

كذلك ثمة ظاهرة أخرى تنتشر بين قبائل الغجر، وتتمثل بالحرص على إكساء الميت أفضل ملابسه وتزيينه ليكون مستعداً لاستقبال ذويه وأصدقائه قبل رحلته إلى الجانب الآخر من الحياة، كما يعتقدون، علماً أن جماعات أخرى من الغجر تحرص على إحراق جثة المتوفى في مفترق طرق بعد تكفينه. وكان غجر بريطانيا قبل القرن الماضي يحرقون موتاهم، إذ تجهز أدوات المتوفى وعربته وأمتعته لحرقها معه، خشية ـ وفقاً لمعتقداتهم ـ بأن الميت سوف يعود مجدداً إلى الحياة على شكل شبح، إن لم يتخلصوا منه ومن جميع متعلقاته.

وعادة لا يموت الغجري في فراشه، فهي فعلة لا تليق به. وينقل المحتضر وهو في النزع الأخير، خارج المنزل أو الخيمة، ليكون مستعداً للانتقال إلى عالم الآخرة. وتبدأ طقوس الموت أولاً بإعلان الوفاة من قبل الشهود، وهم من أبناء العائلة والأقارب.. ثم تبدأ العائلة بالنواح وإبداء حالة الحزن والفراق. وقد تستمر حالات الحزن والصراخ حتى صباح اليوم التالي، وغالباً ما يتحول الأنين والعويل إلى غناء حزين ورتيب.

Twitter: @alqareah

الغجر من البحر بسبب الفجوة التي تفصلهم عن المياه، خاصة مع ندرتها في الصحارى والسهول، وصعوبة حملها ونقلها، إلا بكميات قليلة تكفي الحد الأدنى من استخدامها.

وللغجر منظومة من العلامات السرية تسمى «باترين» وتستند إلى مواد وعلامات ترسم أو تشكل من المواد المستخدمة كقطع الخشب الصغيرة وريش الطيور وبقايا الطعام. وتترك الجماعات الغجرية عادة وراءها علامات لجماعات أخرى قد تأتي بعدها إلى المكان ذاته، بحيث يتم وضع المواد المستخدمة للإشارة إلى دلالة معينة.

ولكل جماعة علامات خاصة بها، وتعتبر سرية، ويحملها رئيس الجماعة في عصاه. ولتلك العلامات استخدامات يومية، ترسم على واجهات المنازل لتقديم المساعدة للجماعات الغجرية التي تأتي لاحقاً.. وتتبلور عادة حول وضع القرية المادي وطريقة تعامل سكانها مع الغجر، كذلك تدوّن بعض الجماعات الحالة الاجتماعية لسكان المنازل لتستطيع الجماعة القادمة ممارسة قراءة الطالع للعوائل وهي تملك من المعلومات ما يكفيها لإثارة الدهشة.

وسائل النقل

رحلات الغجر الأولى كانت سيراً على الأقدام، ولم تظهر العربات أو البيوت المتنقلة في حياتهم إلا في العقود القليلة الماضية، خاصة إثر حصولهم على الحيوانات التي كانت تمثل واسطة النقل الوحيدة. ومع ممارسة الغجر الأعمال التجارية اقتنى بعضهم العربات الثقيلة التي تجرها الثيران.. وساهمت في حل مشاكل السكن التي كانوا يعانون منها، إذ استُخدمت كسكن ووسيلة

Twitter: @algareah

الغجريات عن الساري (الزي الهندي التقليدي) كونه غير متلائم مع نساء رُحَّل يقطعن مسافات طويلة سيراً على الأقدام.

تُخفي المرأة الغجرية سيقانها.. لكنها لا تعتبر الأثداء من الأعضاء الجنسية (وفقاً لمبادئ حياة الغجر) وغالباً ما تعرض ثديها على الملأ حين ترضع أطفالها.

بالمقابل لم يستخدم الغجر الأحذية إلا في النصف الثاني من القرن الماضي، ويشعر زعماء الغجر بميل واضح نحو الأزياء المزركشة المليئة بالأزرار اللماعة والشارات المذهبة والجواهر المزيفة. وتكتمل تلك الزينة مع اكسسورات يصنعها الغجر عادة من العملات المعدنية القديمة، إلى جانب ساعات الجيب والأقراط الطويلة المتدلية لغاية الأكتاف. وتعتبر تلك الزينة بمثابة مدخرات الأسرة، خاصة مع ظروف الترحال المتواصل.

ويبلور الوشم، إلى جانب الاكسسوارات، سمة جمالية أخرى، اضافة إلى كونه تعويذة سحرية ضد اللعنات وطرد الجن والحد من الحسد وحماية الجسد من الأمراض، كذلك استخدم الوشم لأغراض طبية.

وسمة الوشم الجمالية هي الأبرز لدى الغجر، خاصة حينما يشمل الخدين والحنك والجبين وكف اليدين والكتف والبطن. ويقتصر وشم الغجر على تلك المناطق، ويخلو تماماً من العبارات المبتذلة أو الرسوم المثيرة. ففي جو عائلي بهيج يتم الاحتفال بيوم وشم الفتاة التي غالباً ما تكون في سن المراهقة. وتختلف أساليب تنفيذ الوشم على الجسد من جماعة غجرية إلى أخرى، غير أن الطريقة الأكثر شيوعاً تتم بواسطة قطع معدنية مدببة أو إبر الخياطة

Twitter: @alqareah

وتخصصت جماعات غجرية من البلقان باصطياد الدببة، إذ تعتبر عملية جماعية تستند إلى مجموعة من الطقوس التي تصاحب الصيد. ومن التقاليد المتبعة لصيد الدببة أن تبقى النساء والاطفال في المخيم ويخرج الرجال على شكل مجموعات صغيرة تتكون من ثلاثة إلى خمسة أشخاص، كما لا يسمح للنساء المريضات بالاقتراب من الصيادين قبل رحليهم. ويعتبر اصطياد الدببة عملية تعتمد على معرفة دقيقة بشعائر السحر التي عادة ما تصاحب العملية.. إلى جانب التقنية. وبعد اصطياد الدببة تُخلع أسنانها وتؤخذ إلى مخيم الغجر ليتم تدريبها بشكل قاس ومتواصل لغاية إتقان الصنعة تماماً. وتعلّم الغجر أيضاً تدريب القردة وبعض الحيوانات المتوحشة وانضموا إلى عدد من عروض السيرك وسط أوروبا وجتوبها.

وانحسرت عمليات اصطياد الدببة وتدريبها كثيراً إثر الضغوط التي مارستها جمعيات الرفق بالحيوان على صعيد العالم أجمع.

الكلب هو الآخر من الحيوانات المهمة لدى الغجر، وتأتي أهميته بعد الحصان والدب.. وهو بذلك يمثل عموداً أساسياً في حياة الغجر، فهم استخدموه في الصيد والحراسة ومرافقة القوافل. ولم تقتصر الكلاب على نوع معين أو حجم خاص، بل شملت كل الأنواع والأشكال.. لكنهم بالمقابل فضلوا نوع «ليتشر» الذي يتميز بالسرعة والذكاء والشجاعة.

ويعتبر الغجر القطط من الحيوانات الملوثة، كونها تلحس فروها، بينما يحتفون بالأفعى ويخصصون عيداً سنوياً للاحتفال بها، ومن يقتل أفعى في ذلك اليوم فسيحالفه الحظ طوال العام. كذلك

Twitter: @algareah

تتوزع جماعات الغجر في أرجاء المنطقة العربية كافة، وثمة مسميات تطلق عليهم ومن أشهرها «النّوَر» في بلاد الشام ومصر، و«الكاولية» في العراق، و«الحلب» في صعيد مصر والسودان، و«الزط» في الجزيرة العربية. وثمة تسميات أخرى تطلق عليهم في مصر من بينها البرامكة والهنجرانية والغوازي. ويتضح أن تسمية الغجر حديثة العهد نسبياً نظراً لصعوبة جمع حرفي الغين والجيم في مفردة عربية، كما أنها لم ترد في اي من المصادر التاريخية التي تستعرض تاريخ الغجر في المنطقة.. ويرجعها الأب انستاس ماري الكرملي إلى أصل المفردة التركية (كوجر).. وتعني الرحل، بينما يعود أصل مفردة «هنجرانية» التي تطلق على جماعات الغجر في مصر، إلى اللغة التركية وتعني الحداد.. كما تطلق عليهم أسماء أخرى كالقفص.

مفردة نَوَري (بفتح النون والواو) هي الأخرى محرفة عن لوري، وهي أحدى أهم قبائل الغجر التي نزحت من الهند. ودوّن ابن فضل العمري في «مسالك الأبصار» عن الغجر «وهم طائفة كثيرة العدد، ومنهم فرق مفرقة في البلاد، وفيهم ملك وامارة، ولهم خفة

Twitter: @alqareah

بدأت عملية استيطان الجماعات الغجرية في العراق للمرة الأولى عام 1958 بعد أن تمكنت بعض الأسر الغجرية الميسورة من شراء الأراضي، علماً أن قانون التسجيل العقاري المرقم (43) يمنع الغجر من تملّك العقارات سواء كانت أرضاً زراعية أو أميرية باعتبارهم أجانب. وتعتبر عائلة حامد السراي أول أسرة غجرية قطنت حي الكمالية عام 1958 حيث تم تسجيل الأراضي المشتراة بأسماء عراقيين، مما استقطب الحي المئات من الأسر الغجرية ليغدو ثاني تجمع سكني للغجر في العراق بعد حي الطرب «المعامل» جنوبي البصرة. ويحترف غجر الكمالية الرقص والغناء كحرفة أساسية، إلى جانب مهام خدمية أخرى.[2]

ويعتبر حي المعامل المستوطنة الأوسع بالنسبة لغجر العراق، ويقع على الطريق الواصل بين مدينتي الزبير وصفوان جنوبي العراق، ويعرف شعبياً بحي الطرب.. أنشأته الدولة عام 1971 قرب حلبة سباق الخيل ليغدو نشاط الفرق الغجرية مكملاً لسباق الخيل في محاولة لجذب السياح من دول الخليج. واستقطب الحي ما نسبته 40 بالمئة من مجموع الغجر المستقرين في العراق، الأمر الذي جعل الحي المستوطنة السكنية الأوسع لغجر العراق.

بالمقابل تمثل منطقة أبو طراريد الواقعة على الطريق الواصل بين مدينتي الديوانية وعفك، المستوطنة الثالثة بالنسبة للغجر في العراق، حيث طلبت مجموعة من الأسر الغجرية من الجهات

(2) الغجر والقرج في العراق، طه حمادي الحديثي، جامعة الموصل، الطبعة الأولى 1979، ص 52.

Twitter: @alqareah

المرقم 16390 الصادر عام 1959. وقد تم استثناؤهم من أحكام قانون إقامة الأجانب الصادر عام 1962. وبعد عامين أقرت القوانين الرسمية إمكانية حصول الغجري المستوطن على الجنسية العراقية، فيما لو توفرت فيه شروط قانونية حددتها لجنة خاصة. وضم احصاء عام 1965 الغجر لأول مرة في تاريخ العراق، بينما أغفلتهم الإحصاءات السابقة ولم يشملهم تعداد السكان.

وتمثل الزراعة مرتبة متدنية في جدول الفعاليات الحياتية لدى غجر العراق، فالغجري يحتقر الفلاح ويزدري مهنته باعتبارها عبودية للارض.. ويطلق عادة على المزارع تسمية «كاجو» وهو تندر بمعنى العبد، فالأرض كلها ملك الغجري اينما حل أو ارتحل.

ويقوم النظام الاجتماعي لغجر العراق على أساس عشائري، فلكل عشيرة أو مجموعة رئيس يدير شؤونها، وله كلمة مسموعة بين أفراد عشيرته، ويمثلها أمام العشائر الأخرى أو مع الدولة. ومن العشائر والأفخاذ التي ينتمي إليها الغجر: البو خزام، البو عبد، البو عطار، البو بارود، البو حيلو، البو سويلم، البو طحيمي، البو ثنيوان، البو نصيف، والبو دلي.[3]

لامس تطور الحياة منذ ستينات القرن الماضي غجر العراق، دون أن يترك جزءاً من آثاره على عاداتهم وتقاليدهم، فقد ظلوا على هامش الحياة وبعيداً عن ساحتها الفعلية، عدا انهم استبدلوا عرباتهم الخشبية بسيارات حديثة.

(3) مصدر سبق ذكره، ص 178.

Twitter: @algareah

أبناء المهنة الواحدة ثم بقية الجماعة. وتكون أغلب الزيجات وقت الظهيرة. ومن أبرز طقوس الزواج لديهم هي أن يدفع للعريس مبلغ من المال يسمى (النقطة) ويتم استردادها في مناسبات اخرى. ولا يسمح الغجر للآخرين بمشاركتهم في نظام (النقطة) فهم لا يتقبلونها من غيرهم.. حتى من أقرب المحيطين بهم.

ويحل الغجر مشاكلهم بتكتّم شديد ولا يسمحون بتدخّل غيرهم فيها، وذلك من خلال وجهاء الأسر أو مجلس الكبار. وللثراء قيمة ومدلول مهم عندهم، فهو ينصف صاحبه في أي مجلس تحكيم بغضّ النظر عن كونه مخطئاً أو مصيباً. ويتنافسون بإحراق العملات الورقية أو بإلقاء النقود المعدنية في الأنهار، أو بذبح أكبر كمية من الأغنام.

ولا تستطيع أية اسرة غجرية إقامة فرح حينما يكون هناك حداد في أسرة أخرى إلا إذا بدأت الأخيرة بالأفراح.. ومن يشذّ عن القاعدة لا تشاركه الأسرة الحزينة في أية مناسبة بعد ذلك ويفرض على كبيرهم غرامة مادية.

ولا يدفن غجر مصر موتاهم إلا بعد مرور الكفن على عجل جاموس يذبح خصيصاً للوفاة. ومن أقسى وسائل اختبار الصدق لديهم استخدام كأس معدنية يعرضونها للنار حتى تتوهج ويأمرون المتهم بلمس الكأس المتوهجة بلسانه، بدعوى أن من كان صادقاً لن تؤذيه الكأس، وإن كان كاذباً فإن لسانه سيحترق.

واللغة السرية التي تتحدث بها الجماعات الغجرية الثلاث بمصر تسمى (الرطان) رغم اختلاف مضمونها عند كل منها. فالحلب يتحدثون لغة تحمل قدراً كبيراً من المفردات العربية والإيرانية

Twitter: @alqareah

ورغم تداخل الجماعات الغجرية ضمن تفاصيل حياة المجتمع السوري، فقد ظلت محافظة على طقوسها الخاصة وقيمها وعاداتها التي ورثتها عن أجدادها منذ قرون بعيدة.

لبنان

يتوزع غجر لبنان في ضواحي المدن الكبيرة، ليشكلوا حزاماً عند مداخلها، خاصة العاصمة بيروت، وعاشوا على مدار عقود عدة على هامش الحياة اللبنانية. ومع اندلاع الحرب الأهلية عام 1975 رحل الكثير منهم إلى مناطق الساحل السوري، فيما انزوى القسم الآخر داخل البلاد بعيداً عن مناطق الاقتتال.

يدين أغلب غجر لبنان بالإسلام، ويمارسون ـ إلى حد ما ـ الطقوس المرتبطة بذلك الانتماء، غير أن بعض القيم القديمة المرتبطة بالحياة الغجرية ما زالوا يزاولونها لغاية اليوم، ومنها زواج المقايضة، إذ تتم مقايضة الفتيات بين العوائل، إلى جانب الترضية، وهي قيمة مادية تُدفع إذا كانت إحدى العروسين أجمل من الأخرى.

وتبدأ أولى طقوس الزواج بأن يشيد الشاب خيمته ويدفع مهر العروس أو (ثمنها) غير أنه غالباً ما يسترده من خلال النقوط التي يحصل عليها من المدعوين.

ومعايير الزواج عند الغجر تتفق تماماً مع تقاليدهم. فالسن المبكرة هي السائدة، إذ يقوم الأهل بتدبير العريس للفتاة وتتم الخطوبة في فترة لا تتعدى أياماً قليلة. وقد لا تتفق بالضرورة سن الفتاة مع سن العريس. غير أن تمرد الفتاة على قرار الأهل غير وارد على الإطلاق.

Twitter: @algareah